

الروائيتين ، وهو اختلاف يبين مدى التطور الذى لحق بفن الرواية خلال قرن من الزمان يفصل بين صدور الروائيتين . إذ صدرت « مولى ديك » فى سنة ١٨٥١ ، وصدرت « العجوز والبحر » سنة ١٩٥٢ . فقد حشا هرمان ملفل روايته « مولى ديك » ، بالكثير من المقدمات والمعلومات والشروح والتعليقات التى جعلت روايته عملاً وثائقيًا ضخماً أشبه بدائرة معارف بحرية . أما « العجوز والبحر » فهى رواية فنية مكثفة كروايات النصف الثانى من القرن العشرين ، التى طبع أرنست هيمنجواى بصماته الفنية عليها ، بأسلوبه المكثف وجمله القصيرة الغنية بالمعلومات ، وشاعرية الصور الفنية وعمقها ، التى تعكس ثراء خبراته بتجارب الواقع المعبر عنه .

فبينما كان ملفل يحتاج إلى عشرات الصفحات ليقترّب من موضوعه ، نجد هيمنجواى يدخل مباشرة فى صميم أحداث روايته بدون كلمة تمهيد واحدة . فتصور أول كلمات الرواية قوة الإصرار والتصميم لدى الصياد « ستياجو » العجوز ، برغم الهزيمة المتصلة التى واجهها فى رحلته السابقة طوال أكثر من ثمانين يوماً بدون صيد والتى انعكست على شراعه الممزق والمرقع الذى « بدا كأنه هو علم للهزيمة المتصلة » ، وصحبه خلال أربعين يوماً منها صبي يعاونه ثم سحبه والداه يأساً وتشاؤماً من عجز الصياد العجوز . وهكذا قضى الرجل أكثر من أربعين يوماً أخرى وحيداً فى قاربه يصارع الأمواج والعواصف وأسماك القرش المتوحشة ويرفض الرضوخ للهزيمة ، ويصمم على مواصلة النضال فى سبيل الانتصار على قوى الطبيعة وتحقيق الصيد المأمول . وصور الروائى بطله ستياجو وقد تركت المعارك اليومية مع قوى الطبيعة البحرية آثاراً لا تمحى ومعالم ثابتة على كل أجزاء جسمه ، ومع ذلك فقد أضنى البحر وقوة الإصرار ضياء المرح على عينيه نتيجة عدم اعترافه بالهزيمة ، دلالة على عدم قهر روحه .

هكذا يستهل هيمنجواى روايته « العجوز والبحر » مصوراً بتركيز شديد على بطله وموضوعه ومعبراً عن مفهومه العميق لعالم البحر وصراع الإنسان مع قوى الطبيعة البحرية ، وتأكيده لقوة الإنسان الماثلة فى روحه المقاومة وإمكاناته الإنسانية العقلية الكامنة . فإلى هذا المعنى ، لقوة الإنسان وصموده ومقاومته وإصراره ، يومئ هيمنجواى من وراء عرضه لأنموذج بطله العجوز القوى المتحدى لهزائمه وفشله وكبرسه . ويبدو أن هيمنجواى نفسه قد فشل فى المضى على هديه ، عندما خارت قواه الروحية وفقد قوة تصميمه ، ووجد حياته فى الكبر بدون إبداع بلا معنى ، فأنهاها متحرراً برصاصة قاتلة بعد آلام عقلية وروحية عظيمة .